كن كاليم بالله

فضيلة الشيخ

هاني حلمي

www.Manhag.Net

www.Manhag.Net

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره

ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا،

من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له،

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله،

اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد،

اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد،

أما بعد ..

فإني أسأل الله تبارك وتعالى أن يعلمنا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا وأن يزيدنا علما ينفعُنا

{رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا } [الكهف: 10]

مازلنا في هذه السلسلة المباركة "**سلسلة تعرَّف**" ..

ومن خلالها نتعرَّف هل نحن ممن حصّل هذا المقدار المطلوب من المعرفة، التي هي أصل الأصول للوصول إلى ربِّ العالمين .. وقد ذكرنا على مدى المحاضرات الماضية عدة علامات تدارسنا:

علامة الهيبة والتعظيم .. ثم السكينة .. ثم كانت محو العلائق ..

والكلام عن قضية التعلق بغير الله تبارك وتعالى ..

والتي أخذنا فيها محاضرتين، وها نحن نشرع في العلامة الرابعة..

وهي التي أشار إليها الواسطي في قوله:

"من عَرِف الله تعالى انقطع، بل خرس وانقمع"

كلمة انقمع معناها: أن يتغيَّب ويدخل وراء ستر ويجلس وحده، ما معنى هذه العبارة؟

يقول "من عرف الله انقطع"، أي: عجز عن الوصول إلى النهاية وأدرك نقصانه وألمّ بعيب نفسه، وعَلِم تمام العلم أنه لا يستطيع أن يقوم لله تعالى بحقه .. كما قال ربنا تبارك وتعالى {وَمَا قَدَرُوا اللّهَ حَقَّ قَدرِهِ ..} [الأنعام:91] .. ولا يقدِر على القيام بحق العبودية، وهي المشار إليها في كلام الملائكة (ما عبدناك حق عبادتك) .. فحين يصل العبد لهذه الدرجة من اليقين بعجزه، ماذا يحدث ؟

ينقطع .. فيُمسكُ لسانه عن الدعوى فلا يدَّعي شيئًا ولا يعترض، تجده ينقطع فيخرس .. لا يتكلم في ما لا يُشرع له .. وتراه وقد قام لله بمقام العبودية والانكسار والافتقار .. **فانقمع ..** فلا يرى لنفسه حقًا ولا يرى لنفسه قيمة، بل يقوم منكسرًا مفتقرًا، فيلزم الصمت وينشغل بإصلاح عيبه عن النظر لعيب غيره، ويتبرأ من حوله وقوته ويُفوض أمره إلى ربِّه الولي سبحانه.

هذه العلامة تحتها معنيان أساسيان::

المعنى الأول: أن العجز عن الإدراك = تمام الإدراك

كما يذكر العلماء ذلك في كتب الاعتقاد، أن الخوض في أفعال الله .. كما يقول الطحاوي في العقيدة يقول "أن

الخوض في ذلك ذريعة الخذلان وسُلَّم الحرمان ودرجة الطغيان" ــ انتبهوا لهذا الكلام ــ

يقول: أن الذي يخوض فيما ليس له بأهل، والذي يخوض فيما لم يُجعل له، يحدث له أمر من ثلاثة::

1) **يُخذَّل ..** لأنه لن يصل لشيء، وهذا هو معنى انقطع .. من عرف الله انقطع .. سر في هذا الطريق، ثم ماذا؟ .. فكِّر في قضية القدر وتكلَّم في الإرادة الكونية، لن تصل لشيء! .. هو أراد ذلك كونًا وكُتِبَ في اللوح المحفوظ .. حاول أن تصل، قل لي ستصل إلى أين ؟ .. لن تصل؛ لأنه ليس بمجالك .. إذًا، آخر بحثه العقلي في هذه المسألة لن يُوصله إلي شيء فيكون ذريعة للخذلان ..

2) **وسُلَّم الحرمان ..** لأنه سيبذل جهدًا كبيرًا ووقتًا طويلاً فيما لم يُجعل له، فيُحرم هذا الوقت الذي لو كان شغله بطاعة الرحمن أو بما أُمر به لكان أوفق ..

3) **ودرجة الطغيان ..** لأنه عادة من يُسرف في هذا المجال، يطغى ويرى لنفسه شأنًا ويرى أن عقله أكثر ذكاءً وأكثر قدرة من غيره، فيُحرَم ..

فذريعة الخذلان وسيلة لأن يُخذل العبد، لأن معناه أنك تريد أن تصل إلى معرفة مثلاً: سر القدر، وهذا لا يمكن .. وسُلم الحرمان، لا يمكن أيضًا أن تدخل في أفعال الله فتُحرَم، ولأن هذا سُلمه الحرمان فتصل إلى أن تكون محرومًا لا مرحومًا .. وكذلك أنه درجة من درجات الطغيان؛ لأن الإنسان رفع نفسه فوق ما لها .. طغى وتجاوز حده، فحده أن يؤمن ويستسلم {لَا يُسأَلُ عَمَّا يَفعَلُ وَهُم يُسأَلُونَ} [الأنبياء:23]

بهذا قال بعض السلف، وتُنسب هذه المقولة إلى أبي بكر رضي الله عنه:

" العجز عن الإدراك.. إدراك"

نفس الكلام يُقال في الإيمانيات، يقال في مقام الشكر ..

" العجز عن الشكر .. تمام الشكر"

لأن هذا معناه، ويُذكر عن بعض السلف هذه العبارة أيضًا .. أنه لو وصل العبد إلى أنه يشعر تمامًا ويوقن بأنه عاجز، لا تستطيع قواه ومُدركاته من الإلمام بالأمر .. لن تصل إلى شيء بهذا البحث وبهذا الاعتراض؛ لو وصل إلى ذلك فإن مَن ألمَّ بهذه الحقيقة يكون ممن تعرَّف على ربِّه سبحانه وتعالى ،تعرَّف على ربِّه بماذا ؟ بعجزه .. قلنا أن هناك

قانون السلف وضعوه وقالوا :

﴿ (من عَرِفَ نفسه .. عَرِفَ ربَّهُ) ﴾

فمن عرف نفسه بهذه الصفة، وهي: **صفة العجز** التي هي مناسبة لمقام العبودية .. عرِف الله عزَّ وجلَّ **بصفة الكمال** .. فمن أيقن بذلك استقر أمره ..

المعنى الثاني: التفويض ..

المعنى الثاني : وهو المحور الأساسي الذي سنتحدث عنه الذي هو (خرِس وانقمع) .. هو معنى: **التبرؤ من الحول والقوة إلى مقام التفويض** .. وهنا الكلام كله،

ما معنى التفويض ؟!

إبتداءً، مشكلة هذا الموضوع: أنه قليل من الناس من يفهم هذه القضية حق الفهم ..

المحاسبي في كتاب (آداب النفوس) يقول :

"ولا أعلم في الناس شيئًا أقل من الغضب لله والرضا لله والحب لله والبغض لله" ..

التي هي أوثق عُرى الإيمان .. "وأقل من ذلك الرضا عن الله" .. السابقة الرضا لله، يقول: أغضب لله .. أرضى لله .. أُحب لله .. أُبغض لله .. يقول: لا يوجد أحد أقل من ذلك .. يقول:

"وأقل من ذلك الرضا عنه والتسليم لأمره وتفويض الأمور إلى الله"

يقول: أنه لا يرى ذلك إلا نادرًا جدًا .. والمُحاسبي ــ انظر ــ هو من القرن الثالث، والآن ماذا يُقال عن شأن الناس في هذا الزمان؟!!

وابن القيم له كلام ذكرناه أكثر من مرة في قضية التسخط، في (زاد المعاد) قال: لو صبرت الناس، ورأيت دقائق ما في بواطنهم وجدت في أعماقهم ذرات التسخط .. فما هناك أحد إلا ويجد نفسه مبخوس الحق قليل الحظ في شيءٍ ما .. يعني لَمَ لمْ آخذ هذا الشيء ؟ .. على أن هذه كان يقتضي منها كذا، عقل البشر يقول ذلك: لو كنت تزوجت في التوقيت الفلاني، لكانت أُغلقت عليَّ أبواب المعاصي هذه ولكنت اجتهدت في الطاعة بالشكل الفلاني! .. لو

كان يُسر لي المال ولم يحوجني هذا المال للعمل لساعات طوال من أجل شيء معين فالوقت ضاع! .. لو كنت عمَّرت هذا الوقت بطاعة الله سبحانه وتعالى، لكان هذا الوقت لم يضيع ولم يضيع شبابي كله في اللهث وراء المال .. فكل أحد يرى أنه مبخوس الحق في شيء .. امرأة خُلقت وليست بجميلة ولم تُوفق للزواج، فتقول: وما شأني بذلك فأنا لم أخلق نفسي؟!! لو كان ربنا خلقني جميلة لكنت الآن متزوجة ولم تحدث المشاكل مع أهلي وما كنت خائفة من شبح العنوسة وما شابه !! .. امرأة أخرى أُصيبت بمرض معين أعاقها عن القيام ببعض الوظائف، تبدأ تقول: أأنا فعلت ذلك بنفسي ؟!

فكل الخلق يرى أنه مبخوس الحق !!

سبحان الله .. سبحان الله .. سبحان الله .. لو أنك رأيت الناس جميعهم وصبرت هذا المعنى فيهم، ستجد أنك تقول من داخلك سبحانك ما أحلمك! ـــ دائمًا والله عندما أجلس مع شخص غني أو فقير، ويبدأ بالكلام فهو معترض على بعض الأمور .. فيقول: ماذا أفعل ؟ .. شاب يتحدث معي فيقول: ماذا أفعل الأمور متعسرة معي جدًا؟! أنا خلاص قاربت من الجنون .. أعوذ بالله أعوذ بالله أنا بذلك سأكفر . لماذا ؟! .. الأمور متعسرة، كل شيء موجود ولكن عند طرق الأبواب للزواج تُغلق بوجهي .. فهو متسخط تسخط غير طبيعي !! .. هو يقول هكذا باللفظ " أعطيني، لكي أُسيِر أموري! " .. هو يفهمها هكذا في عقله ويرى أن الموضوع كله سينتهي بهذه الطريقة!!

وكثيراً عندما تجلس مع فقير ويبتدأ يتحدث إليك، في أحد المرات قال لي شخص: لماذا لا تتكلمون في حقوقنا؟ .. أنتم تتكلمون في أشياء!!! .. قل لي وأنا أنتظر المواصلات، أجلس بالساعات ثم أركب وأعاني ولماذا يُفعَل بي هذا؟ .. تكلم عن هذه القضايا .. قضايا الفقر، لماذا يحدث لي هذا كله؟ .. ألم يكن كل هذا الوقت بدلاً من أن أتعرض لهذه المشاكل، ويحدث معي مواقف في وسائل المواصلات ووجع قلب وتحرشات ومشاكل .. وأنا إنسان أريد أن أكون ملتزمًا! .. حِل المشاكل ..

فكل واحد يرى أنه مبخوس الحق وأن الله سبحانه وتعالى قد ظلمه في أحد الجوانب .. وابن القيم يقول "ولا يتجاسر عن ذكر ذلك " .. لا يستطيع أن ينطقها صراحةً، لكن بلسان الحال يقول ذلك ..

من هنا تأتي هذه المشكلة .. من الراضي عنك يا ربَّ؟ ومن الذي سَلَم أمره لك يا ربَّ؟ .. قَلَ في الناس من تجد ذلك .. فكلام المُحاسبي، كلام في غاية الخطورة ..

أنه بحق يَقِل .. بل يندر في الناس، من يرضى عن الله حق الرضا ويسلم الأمر لله ويفوِّض الأمر إلى الله،،

من الأمور أيضًا المهمة وعلينا فهمها في قضية التفويض،

أن التفويض هو شعار العبودية الأعظم

سُئل محمد بن خفيف: متى تصح العبودية ؟، قال

"إذا طرح كُلٌّ على مولاه، وصبر معه على بلواه "

إذا طرح كل شيء .. فوَّض الأمر تمامًا على الله عزَّ وجلَّ، وصبر معه على الإبتلاء .. فإذا حقق هذا المعنى من التسليم والرضا والتفويض، يكون قد حقق معنى العبودية الأعظم .. وطالما إنك تتكلم عن مقام عالٍ جدًا، فسترى أن المسألة محتاجة أن لا تتعجل .. وأنا سأقول لك أنت مفوض أمرك لربِّك أو لا؛ لأنك ستفهم الآن أن معنى التفويض مقام من المقامات العالية جدًا التي تحتاج منك عمل كبير وتحتاج قبلها –كما سنذكر – بعض الأمور وأهمها قضية الثقة .. الثقة بالله ابتداءً واليقين به سبحانه تعالى ..

التفويض والتوكل

هناك عدة وجهات نظر عند سلفنا الصالح في تقييم هذه القضية، هو التوكل والتفويض .. هل التفويض هو الأعم الأوسع؟ أي هل هو الأكبر والتوكل جزء منه؟ ما هي العلاقة بينهم هم الاثنين؟ هل مثل ما يقولون بعبارة الأصوليين وغيرهم .. هل العموم هنا عموم وخصوص وجهي أو عموم وخصوص جزئي ؟

أبو علي الدقاق رأيه: أن التفويض المقام الأعلى في التوكل .. يقول:

"التوكل ثلاث درجات: يبدأ بتوكل ثم تسليم ثم تفويض .. فالمتوكل .."

.. اسمعوا وافهموا؛ لأن كلام السلف يحتاج فهم..

"فالمتوكل يسكن إلى وعده .."

أي: إن الله سبحانه وتعالى وعده بالنُصرَّة .. وعده أن يحبه، يحب المتوكلين .. وعده بأن يكون في معيَّته الخاصة .. فهو يسكن إلى ذلك، ويسكن إلى ما وعده الله عزَّ وجلَّ فيتوكل .. أي إن الله عزَّ وجلَّ قال له { .. وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ..} [الطلاق: 3] .. هو حسبه: هو كافيه .. هو ناصره .. هو مؤيده .. هو معه، فهو يركن إلى

ذلك .. سيقول لك: لقد تركتها على الله، الله تعالى يدبرها كيف شاء؛ لأني واثقٌ أن الله سبحانه وتعالى لن يُضيِّعني.

"أما المُسلِّم فيكتفي بعلمه .."

التسليم .. يقول: تأتي مرحلة أعلى وتكون بمزيد علم .. بمزيد معرفة .. بمزيد فهم عن الله تبارك وتعالى .. فعلمه يقتضيه لأن يُسَلِّم وينقاد لله سبحانه وتعالى ..

متى يحدث هذا؟؟

كلما يزداد رقيًا ويزداد تقربًا إلى الله عزَّ وجلَّ، يستشعر مقامات العبودية هذه ..

فعلمه يجعله يعرف صفات كمال الله وفي نفس الوقت يعرف عيوب النفس عنده، فيبتدأ يُسَلِّم الأمر لصاحب الكمال المطلق؛ لإنه يعرف أنه لن يتمكَّن من عمل ذلك .. هذه .. {لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ} [النجم: 58] .. {..وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ..} [التوبة: 118]

فأنا مُسَلِّم .. أتعرف كإنك قد وضعت – و لله المثل الأعلى – لكنه من البداية هكذا .. أحدهم وُضِع في حلبة السباق أو في حلبة المصارعة، وأنت أمامك شخص امكانياته متعددة 1، 2، 3، 4، 5 .. فلديه امكانيات ضخمة جدًا، وقدراته الجسمانية وقدراته الأخرى أكبر مما تتصور .. لا ينفع أن تُقارن به .. أنت وزن الذبابة .. أنت هكذا وهو ثقيل الثقيل .. فأنت ماذا ستفعل؟ .. ففي هذه اللحظة ماذا سيفعل ؟ .. سيُسَلِّم _ انظروا _ متى سلَّم؟ .. عندما عَلِمَ بقدرات الآخر .. هي المسألة تأتي هكذا .. هي نفس الأمر، هو عندما يعرف الله تعالى، ويعرف أن له الكمال ويعرف أنه في نهاية الأمر .. أو صاحبنا الذي فكَّر بعقله وسار إلى أن حاول أن يصل لشيء ولم يصل لأي شيء، عرف أن هذه قدراته وانتهى إلى هنا .. ولم نستفد من علمنا طوال عمرنا إلا قيل وقال ولم نصل لشيء .. يقف ويُحجم ويستسلم .. هي معنى: والمُسَلِّم يكتفي بعلمه .. وماذا عن التفويض؟

"وصاحب التفويض يرضى بحكمه .."

يرضى بحكمه .. نجمعها مع كلام ذي النون عن **مقامات الرضا الثلاثة:** الذي هو أول شيء ..

1) لا اختيار له قبل القضاء .. 2) ولا مرارة بعد القضاء .. 3) وهيجان الحب في حشو البلاء.

هذه الثلاثة أمور هي التي تحقق الرضا ..

عرفت فأحببت، فحبي له جعلني استعذب العذاب ..

فحين ينزل مُر القضاء، يستعذبه .. على اعتبار أنه من الحبيب .. من الودود سبحانه وتعالى .. هكذا، فيرضى بماذا؟ يرضى ليس عنده مرارة .. هو أصلاً لم يختار، لأنه عمل الأسباب وبعد هذا استعان وترك الأمر ففوَّض ..

فوَّض الأمر، فرضيَّ بالحكم ..

سواء هذا الحكم كان فيه خيره فيما يراه أو فيه شره، سواء هذا أو ذاك هو يرضى لأنه يعرف أن الله يدبر له أمره .. {..وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ..} [البقرة: 220] .. هذه رؤية أبو علي الدقاق، لذا قال في قول آخر:

"التوكل بداية .. والتسليم واسطة .. والتفويض نهاية" ..

وقال: "التوكل: نفي الشكوك والتفويض إلى ملك الملوك"

☜ هذه رؤية أبو علي الدقاق .

✍ الهروي في (منازل السائرين) قال: أنه توجد علاقة بين التوكل وبين التفويض، واعتبرها علاقة عموم وخصوص ..

⊂ اعتبر أن التفويض أوسع من معنى التوكل

يقول: لا، هو الدائرة الكبيرة .. وسأقول لكم هو كيف أتى بها ؟، وقال: أن التوكل أخص.

قال "التفويض ألطف إشارة وأوسع معنى من التوكل"

لماذا إذًا؟

قال "لأن التوكل يكون بعد وقوع السبب"

يعني أنا أتخذت الأسباب .. أنا عملت .. أخذت السبب، بعد هذا توكلت .. استعنت .. هو يرى بأن مقام التوكل يأتي بعد اتخاذ الأسباب ..

"أما التفويض فإنه يكون قبل وبعد السبب"

هو فوَّض منذ البداية، يعني الآخر يعمل ويأخذ بالأسباب، أنا يجب أن أقوم بالخطوات: 1 .. 2 .. 3 التي أُمرت بها .. أسعى للرزق .. فيجب أن آخذ بالسبب .. وأنا بعد هذا أترك الأمر، وأتوكل على الله سبحانه وتعالى .. الله تعالى سيرزقني في العمل هذا بكذا .. خير لم يحدث، قدَّر الله وماشاء فعل .. أنا متوكل ..

أما المفوِّض هذا من الأصل وهو أثناء إتخاذ السبب وبعد اتخاذ السبب، هو في الحالتين مفوِّض ومُستسلِم ومنقاد ..

فيقول على هذا أنه يكون أوسع

والتفويض عنده هو عين الاستسلام، أما التوكل فهو شعبة منه.

ابن القيم فسر كلامه وقال "يعني بذلك من يفوِّض أمره إلى الله، يتبرأ من الحوَّل والقوة ويفوِّض الأمر لصاحب الأمر من غير أن يقيم المفوِّض إليه مقام نفسه في مصالحه"

انتبهوا لهذه الجزئية .. أنا لا أُدَبِّر لنفسي ..

الثاني في مقام التوكل، أثناء أخذه للأسباب يُدَبِّرَ لنفسه .. يعتمد على قدرته، وبعد هذا يستعين ..

المفوِّض لا يعمل هكذا .. في كلتا الحالتين:: اللهم دبِّر لي فإني لا أُحسِن التدبير ويمتثل للأمر فقط .. أتفهمون الفرق؟ .. فيقول: لا يقيم المفوِّض إليه مقام نفسه في مصالحه.

ما معنى كلمة التوكل؟ .. أنه أنت .. أنت الذي ستقوم بهذه المهمة، فوكلت أحد ليقوم بها نيابة عنك .. هذا معنى التوكل .. فهو يقول أنت وكلته، يعني أنت قمت بالأمر في البداية، ثم أعطيته إياها .. قلت له: دبِّرها لي ..

التوكل لا يأتي هنا .. إنما التفويض والاستسلام، من الممكن أن يكون هكذا .. يصبح أوسع هذا .. ممكن يكون ..

ابن القيم لم تعجبه فكرة أن التوكل كذا، قال: لا واستشهاد ابن القيم أدق .. قال فحوى كلامه، قال: إن القرآن مليء بذكر التوكل، ولم يذكر التفويض إلا في موضع واحد فقط وهو قول لله تبارك وتعالى في سورة غافر {..وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ..} [غافر: 44] .. أما التوكل فسمى الله نفسه الوكيل وآيات التوكل لا يوجد أكثر من ذلك في القرآن فقال عنده "لو قال قائل .." .. و عبارة ابن القيم فيها من الأدب الجم وهو يعترض على كلامه ..

قال: "ولو قال قائل التوكل فوق التفويض وأجلّ منه وأرفع لكان مصيبًا، ولهذا كان القرآن الكريم مملوءاً به .. أي:

بالتوكل .. أمراً وإخباراً عن خاصة الله وأوليائه وصفوة المؤمنين، وأمر الله به رسوله في مواضع عديدة من كتابه" .. وقال: أن النبي صلى الله عليه وسلم سُمّي **(المتوكل)** في التوراة، كما في الحديث الذي عند البخاري في الصحيح من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: "قرأت في التوراة صفة النبي صلى الله عليه وسلم: مُحَمَّد رسولُ الله، عبدي وَرَسُولي، سَمَّيتُه المُتَوَكِّل، ليس بِفَظٍّ، ولا غَليظٍ، ولا سَخَّابٍ في الأسواق .." ..

وأخبر عن رسله بأن حالهم كان التوكل، وبه انتصروا على قومهم .. وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب، أنهم أهل مقام التوكل .. {..وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} ..

قال "ولم يجئ التفويض في القرآن إلا فيما حكاه عن مؤمن آل فرعون، من قوله: {..وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ..} [غافر: 44] .. وقد أمر الله رسوله بأن يتخذه وكيلاً، فقال: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا} [المزمل: 9] .. وهذا من أوائل ما نزل في أول البعثة، وهذا يُبطل قول من قال من الجهلة: إن توكيل الربِّ فيه جسار على الباري!" ..

أنت هكذا تُلقي أمر ثقيل، أو فيه نوع من الجرأة .. يعني إنك تتجرأ على الله عزَّ وجلَّ في أن تلقي عليه أمرك! .. لماذا تلقي عليه أمرك؟ .. يعني المفروض إذا كنت متأدبًا، لما فعلت هكذا .. لا تُلقي بالحمل على ربِّك ..

"لأن التوكل يقتضي إقامة الوكيل مقام الموكّل، وذلك عين الجسارة " ..

هذه قلة أدب .. بعض الناس تقول هذا: هذه قلة أدب، إنك هكذا تتجرأ على الله وتقول له: يا ربِّ احمل عني هذا الهمَّ. فهل هذا أدب؟ .. أنت تفعل كل هذه المصائب وفي النهاية –لو كان هذا في حق البشر– لأن للأسف الشديد تأتي من هنا الاشكالية– أنك تتعامل مع الله عزَّ وجلَّ حتى في مقام الأخلاق وفي كذا، كتعامل البشر وهذا لا يصح بحال .. هذا في حق البشر، إنك تفعل كذا وكذا وكذا وفي النهاية تتجرأ عليَّ وتأتي تطلب مسامحتي في أن أحمل عنك هذا الشيء أيضًا .. يعني أنت تضربني في ظهري وفي النهاية تأتيني لأحمل عنك أمرك، يعني المعنى كذلك وطبعاً لله المثل الأعلى وهذا لا يصح فيه القياس أبداً.

قال "ولولا أن الله أباح ذلك وندَّب إليه، لما جاز للعبد تعاطيه .." ..

بعض الناس قالوا: التوكل من الأصل لم يكن ليفعله أحد، لأن فيه نوع من الجرأة على الله عزَّ وجلَّ ..

قال ابن القيم: "وهذا من أعظم الجهل، فإن اتخاذه وكيلاً هو محض العبودية وخالص التوحيد، فإذا قام به صاحبه حقيقةً فقد أصاب هذا المقام العالي من مقامات العبودية. ولله در سيد القوم وشيخ الطائفة سهل بن عبد الله التُستري إذ يقول:

"العلم كله بابٌ من التعبُّد، والتعبُّد كله بابٌ من الورع، والورع كله بابٌ من الزُهد، والزُهد كله بابٌ من التوكُّل"

يقول لك: خلاصة الموضوع كله::

العلم كله بابٌ من التعبُّد .. العلم عبادة القلب، فهو باب من أبواب التعبد.

يأتي على ذهني دائماً عند ذكر هذا الكلام، على أنه استطراد: كلام الشافعي يقول: "وقَلَّ من رُأيَّ بعد مماته، فقال: أنه نجا بعلمه"، لأنه باب من التعبد؛ فمن اعتمد عليه فإنه يُخذل، يقول: قلّ من رُأيَّ أنه قيل له: ماذا صنع الله بك؟ ماذا فعل الله بك؟، فقال غفر لي بعلمي .. قال: قلَّ في الناس من ذلك، يقول لك بماذا؟ بركعات كنا نصليها من الليل، بماذا؟ بعمل صالح قام به لا يعطي له بالاً، بكلمة قالها نُشرت في الآفاق، بكذا.. بكذا.. بكذا.. بأعمال لا تُعد عند الناس ذات شأن، إنما العلم الذي هو عند الناس ذو شئون، قلَّ في الناس من ينجو به .. وليس معناه التزهيد في العلم، لكن هذه الكلمة: **بابٌ من التعبُّد ..** يعني هو جزء من أجزاء، فلا يُعتمد عليه فقط .. مثل: الدعوة .. هي كذلك أيضًا .. ومثل: التنسُّك .. لأن كلمة التنسُّك أدق من كلمة التعبُّد .. الأخ أو الأخت الصائم القائم الذاكر، فهو يعتبر إن هذه هي العبادة ..

وهنا الإشكال فهي بابٌ من التعبد،،

عبارة التُستري دقيقة؛ لذلك ابن القيم فَرِحَ بها وقال: لله در سيد القوم ..

العلم كله بابٌ من التعبُّد، والتعبُّد كله بابٌ من الورع

لأن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث قال: "وفضل في علم خيرٌ من فضل في عبادة، وملاك الدين الورع" [رواه البيهقي وصححه الألباني]

إذا أردت تلخيص الدين في كلمة واحدة:: **الورع ..**

".. دع ما يريبك إلى ما لا يريبك" [رواه أحمد وصححه الألباني] .. اتق الشُبهات فإن من اتقى الشبهات فقد استبرء لدينه وعرضه ..

التورُّع لا يصنعه إلا من حاز أولاً علم ..

لأنه لو لم يتوَّرع بعلم، سيقع في وقعات وسيقع في شطحات .. فأُضيق الواسع أو أغلو في ما لا يصح فيه الغلو، نتورع..

المسألة تحتاج إلى فقه في معاملة النفس،،

معرفة ما أعطيه لها وما لا أعطيها –وهنا تحتاج شخص **يعلم علم الفاضل والمفضول ويعلم دقائق وأسرار الأمور،** لأن ما قد يكون مباحاً بالجزء .. هو في جزءه مباح .. قد يكون باعتبارٍ آخر مكروه، أو محرَّم باعتبارات .. فإشكالية لا يهتدي إليها إلا ذوُ علم .. فبالتالي يجب أن يكون لديه علم، و يجب أن تكون لديه في الأصل استعدادات ورياضات مع نفسه ليصل إلى الورع .. ليست لأي شخص .. ليست المسألة لن أفعل ذلك تورعاً –لا– هي المسألة إنها تحتاج **رياضة مع النفس،** مثل ما قلت يجب أن يعرف فقه التدرُّج فيعطيها مثلاً العصا ومتى يعطيها الجزرة،

التوَّرع مسألة ليست بالهينة، وتحتاج إلى الكثير من الفقه في معاملة النفس،،

يقول: **والورع كله بابٌ من الزُهد،**

نحن الآن نتسع بالدوائر .. فالآن دائرة الزهد هي الأعمق وهي أوسع، لماذا؟ مقام الزُهد من المقامات التي تقتضي::

أولاً:: الانقطاع عن حظوظ النفس ..

وهذه منزلة أخرى من المنازل العالية في التعامل وفي فقه النفس .. ما فات في الورع، يعرف بالعلم ما يُعمل وما لا يُعمل، ويكون لديه مجاهدة للنفس؛ لكي يروِّض نفسه على ألا يقع في شيء مشتبه .. إنما هنا لديه حظوظ نفس، والقضية كلها صراع خطير ما بين حق الربِّ وما بين حظ النفس .. فلكي يزهد في حظ نفسه، ولكي لا يكون لي هنا قيمة .. هذه تحتاج مجاهدة أشد .. لا يوجد حظ .. أتفهم معنى أنه لا يوجد حظ؟ ... بمعنى أنت تتزوج ولا تجد حظ نفس في الاستمتاع بالزوجة، إنما تتعبد على أنه حق ربِّ .. وإذا حدث الاستمتاع، فيأتي كنتيجة وأثر وليس

كهدف .. هل تفهم كيفية تحقيقه؟ .. هذه المتعة .. أنت مستمتع بالامتثال، أنت مستمتع بإرضائه إما إرضاء نفسي فليس موجود، كيف تأتي هذه ؟ .. ليست سهلة على الإطلاق .. ليست سهلة تماماً، إنك تفكر إن مرتبة الزُهد الذي هو أن تأكل أي طعام وتشرب أي شرب والدنيا تسير كما تسير وأنا هكذا زاهد في الدنيا، لا هناك مطلبات .. لأن قصة الزُهد هذه دائماً تُشكِل على كثيرٍ منا؛ لأننا نفهم الزُهد في نطاق .. لأن فهمنا للدنيا ضيق، نحن نفهم الدنيا على أنها الأموال الكثيرة .. السيارة الآخر موديل .. الملبس شكله كذا .. البيت مواصفاته كذا .. فأنا إذا لم أفعل ذلك، أنا هكذا زاهد .. لا ..

لو لم تسعى في حظ من حظوظ نفسك، أنت هكذا صرت زاهدًا .. فلكي تصل لهذه القمة تحتاج رياضات ومجاهدات شديدة جداً.

فيقول "والورع كله بابٌ من الزُهد، والزُهد كله بابٌ من التوكُّل"

ما الباعث على إنه فعل هذا ؟ ⇦ هو المقام الأول : الاستسلام والتفويض والانقياد وترك الأمر إلى الله عزَّ وجلَّ ..

فعاد لا يرى لنفسه شيئًا، ولا يرى حظاً لنفسه .. فتعلَّم الزُهد .. تعلمه للزُهد جعله .. هو كان في الأصل وَرِع، وبالتالي سيكون على مقام من مقامات التعبُّد العليا وبالتالي سيكون هذا الذي تعلَّم ابتداءً .. كإن المعادلة تقول:: علم يؤدي إلى عبادة، عبادة تؤدي إلى ورع، ورع يؤدي إلى زُهد، زُهد يؤدي إلى توكل

علم ⟵ يؤدي إلى عبادة ⟵ تؤدي إلى ورع ⟵ يؤدي إلى زهد ⟵ يؤدي إلى توكُّل

معادلة طويلة وتحتاج بالفعل أن الإنسان منا على الأقل أن يضعها أمام عينيه؛ لكي يعرف هو في أي منزلة منها. خمسة سلالم، السلم الأوَّل تتعلم، والتي نحن فيها .. تتعرَّف .. ومنها تصل إلى مقام التعبُّد، ومنها تصل إلى مقام الورع، ومنها تصل إلى مقام الزُهد، ومن الزُهد تصل إلى مقام التوكل .. لذلك يجب أن تكون هذه المعادلة أمام عينيك، علها تنفعك طالما أنت في الطريق.

على هذا الاعتبار، اعتبر ابن القيم: **أن التوكل أوسع من التفويض وأعلى وأرفع ..** فعنده أن التوكل أعلى .. كلامهم في هذا الباب يُشعر بأن التفويض مرحلة وأن التوكُّل أعم .. عندما قال إنها ثلاثة مراتب، وقال سنبدأها بتوكُّل، وهو يعرِّف التوكل، عرَّفه بمثله .. كأنه يقول أنه يوجد توكُّل ويوجد توكُّل آخر .. توكُّل جزئي ..

في البداية يتوكَّل وبعد ذلك يرتبط بالوعد .. يرتبط بالجنة.. يرتبط بالجزاء .. وبعد ذلك يستسلم للأمر، عن طريق العلم وبعد ذلك تأتي مرحلة التفويض– تمام؟– نحن في البداية سنُأصِّل الفكرة نظرياً .. وبعد ذلك سنتحدث عن التطبيقات العملية، التطبيقات العملية: كيف تقوم بهذا كله؟ .. فهمنا؟.. نحن مازلنا نحاول فهم معنى التفويض ونحاول نوصِّل إليكم المعنى إجمالياً ..

التفويض .. أخذنا في فضائله عدة أمور، أول شيء تحدثنا عن خطره ابتداءاً، وقلنا أنه شعار العبودية الأعظم وفرّقنا ما بين التوكُّل وما بين التفويض.

من فضائل التفويض ..

ما هي الثمرة التي سنجنيها من هذا الدرس؟،

التفويض راحة، وهو ينشأ عن الثقة به سبحانه .. وهو خير علاجٍ للتسخط..

هذا ما نريد أن نصل إليه، بتعبير الناس الدارج: أن التفويض هو أن تتركها على الله .. أن تتركها على الله، معنى من معاني التفويض .. أي: لا تحمل الهمَّ .. اتركها على الخالق، هو الذي خلقك ولن يتركك .. هذه المعاني التي يدندن حولها عامة الناس، هي جزء من معنى التفويض .. فمن يفوِّض يكون في راحة، تركها لله يدبِّرها له كيف شاء .. نحن له عبيد يفعل بنا ما يريد ..

تمام الاستسلام وتمام الانقياد لله جلَّ وعلا.

في عبارة لأبو علي الجزجاني .. عبارة أيضًا لطيفة، مثل ما ذكرنا عبارة سهل يقول:

"الرضا دار العبودية .. والصبر بابه .. والتفويض بيته"

الرضا الدار .. لأن الدار أوسع .. والصبر باب، باب الدار .. والتفويض البيت.. كأنه يقول في حياتنا: أن الرضا هو العمارة وأن التفويض البيت (شقتك أو حجرتك) .. ولو أخذناها مع مفهوم آخر شقتك .. حجرة نومك، والصبر هو الباب ..

"فالصوت على الباب .. والفرَّاغة في الدار .. والراحة في البيت"

فهو يقول: أن الفرَّاغة .. أن الدار– كما في بيوت الفلاحين، الدار كله وبعد ذلك البيت من داخله – فالدار هو الأوسع ..

فالسعة في الرضا .. فمن ينال مقام الرضا، ينال هذه السعة وهذه البحبوحة وهذه الأريحيَّة في الحياة .. لديه سعة في الأمور.

أما الصبر، **فالصبر حبس ..** والصبر لا شك أدنى من مقام الرضا .. الصبر يأتي أولاً .. بما إنه يأتي أولاً، فيجب أن تدخل من جهته .. هو الباب .. ويجب من هنا يُسمَع صوتك .. هنا هو يسمع أنينك، ويرى كظمَّك للبلاء، ويرى حبسك لنفسك .. فلا تتشكك ولا تتسخط، فتكون قائم بمقام الصبر .. مُمسك لنفسك .. فيجب أن تطرق الباب من هنا .. فيجب أن تدخل من الباب .. لن تستطيع أن تدخل من مكان آخر .. عندما تدخل من الصبر، ماذا ستنال؟ .. **الرضا،** تجد الدنيا تُفتح عليك من هذه الناحية ففيها أريَّحيَّة ... متى ستتنفس الصعداء وتكون قد أرتحت من الأمر؟ .. هذه في **التفويض** .. هذا قول أبو علي الجوزجاني.

ابن عقيل في كتاب (الفنون) .. وكتاب الفنون لم يصلنا، لكن منقول عنه في بعض الكتب ومنها كتاب الآداب الشرعية لابن مفلح .. كتاب الفنون هذا من أكبر الكتب التي أُلفت في الاسلام، ثمانمائة مجلد .. هو أوسع ما كُتب، فبينقل كثيراً عنه ابن مفلح في كتاب (الآداب الشرعية) .. ابن مفلح حنبلي، وطبعاً ابن عقيل كذلك .. فينقل عنه كثيراً.

انظروا لهذا التشبيه .. كأنه يتكلم في علم النفس، يقول:

"والطبع كالصبيان الرُعَّن .." .. شبيه بالصبية الأشقياء .. "ومن بُليَّ بذلك أذهب وقته في أخس المطالب"

عندما يبتليك الله بصبي ويكون شقي تمام الشقاوة على حد تعبير الناس .. فهذه مشكلة، لأنك لن تتمكن من السيطرة عليه بأي شكل ..وستضيِّع وقتك، كل حين تجلب له شيء لكي يهدأ .. فستُضيِّع وقتك ..

وفاتته الفضائل، فأصبح كمربٍ طفل يتصاباه،

يقول ان مَنْ يُبتلى بطبع، وهذا الطبع يكون فيه نوع من الانحراف تصير مشكلة كبيرة .. مثل بالضبط المربي الذي يحاول أن يُساكن ويُهادن هذا الطفل الشرس ..

فيتصابى له ويجتهد في تسكين طباعه، تارةً بلعبة تُلهيه وتارةً بشهوة

كُل هذه يا حبيبي .. أو أفعل هذه .. أو تعال نتنزه .. أفعل أي شيء ..

وتارة بكلام الأطفال

وأحيانًا يفعل كالمُهرِّج دون فائدة .. كل هذه الأمور ..

ومن كان دأبه التصابي، متى يذوق طعم الراحة؟!!

يقول: من حاله هكذا، طوال الوقت يظل يُساكن نفسه .. يحاول أن يعطيها ما تريد، بحيث أنه يؤدبها ويُهذبها .. مرة يفعل لها كذا، ومرة كذا .. فمتى سيكون لديه الوقت لكي يرتاح؟ .. لأنه طوال الوقت في مجاهدات، وطوال الوقت في تعب ونصب في تأديب هذا الطفل.

يقول: ومن كان في طبعه كذا، فمتى يستعمل عقله؟!!

مَنْ يتعامل مع الطبع بهذه الطريقة، مثل ما قلنا مثلاً: شخص من طبعه أنه غضوب أو امرأة طبعها كذلك، زوجته هكذا .. فكلما تتعلل له بأن فيها هذه الإشكالية .. هي عندها هذا الموضوع الفُلاني .. فيُهادنها .. أو هي تقول له: أنا مبتلاة برواسب الجاهلية ولدي مشاكل، فتهادن معي .. أو أنها مُنفتحة على الدنيا بعض الشيء، فماذا سيفعل لها؟؟ .. فيُهادنها .. حاضر .. حسنًا .. لا تقسو عليها بشدة الآن، حتى لا يحدث كذا .. فكل مرة: فلنترك كذا الآن .. فلنفعل كذا .. فيضيع الوقت تمامًا ..

هي المسألة تحتاج لعقل، من البداية تمامًا يمنع هذا الشرود من النفس ..

فيقول: فمتى يستعمل عقله؟!! .. ومحل الشاهد::

قال "والحياة الطيبة .. " .. {.. فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ..} [النحل: 97] .. قال: الحياة الطيبة .. منتهى راحة البال ومنتهى السكينة ومنتهى الطمأنينة ومنتهى هذا النوع من السمو النفسي ..

"والحياة الطيبة التفويض إلى الله، كالصبي حال التربية يفوِّض أمره إلى والديه ويثق بهما"

الأم تقول للولد دائمًا: أن هناك مرجعية يتم الرجوع إليها، ألا وهي الوالد .. والوالد محل الثقة .. ماذا سيقول أبي في هذه المسألة؟ عندما يعود نسأله .. أبي قال كذا، إذًا انتهت نذهب نذهب .. لا نذهب، لا نذهب.. تأخذ، تأخذه .. لا تأخذ، لا تأخذه ..

فيقول "فيُفوِّض أمره إلى والديه ويثق بهما، مستريحاً من كدِّ التقيُّد .. فلا يختار لنفسه، مع تفويضه إلى من يختار له"

فالمُفوّض وثِقَ بالمُفوَّض إليه ..

لذلك قلنا: التفويض منتهى الراحة، وفي نفس الوقت ينتج وينشأ عن الثقة بالله .. أنا واثق أنه يُدبِّر لي الأصلَّح، وإلا فإن كنت في شك من هذا فأنت على خطر ..

هنا المشكلة .. دائمًا اعتراضات العبيد، عن ماذا تنشأ ؟

قلة الثقة به سبحانه ..

هو من دبَّر لي .. نحن له عبيد يفعل بنا ما يريد، هو شاء لي هذا .. هو يختار لي الأوفق لا محالة .. {.. يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ..} [البقرة: 220]

نحن له عبيد، يفعل بنا ما يريد سبحانه تعالى،،

فتجد نفسك أنت هكذا مرتاح البال .. هو يدبِّرها كيف شاء .. وإن كان في ظاهرها الشر، ففي باطنها الخير لا محالة .. ومنعهُ عين العطاء .. فلو تعامل العبد بهذا المنطق استرااااح.

بعد ذلك يتناول مسألة أخرى، ونحن في سياق ذكر أهمية وفضل التفويض .. يتكلم عن إنه::

خير علاج للتسخُّط ..

وهذه قضية القضايا، إذا أردنا أن نتحدث عن أصول الآفات ونركز جدًا فيهم .. سنجد أن هذه الأصول ترجع إلى أمرين عادة أو أكثر الناس .. قل من ينجو في هذين البابين: **باب الكبر وباب التسخط..**

إما يعطيك نعمة، تتكبَّر بها .. إما يمنع عنك، فتتسخَّط ..

لأنك ما بين أمرين، إما أنت في حال رخاء أو في حال شدة .. فلو كنت في حال رخاء، عادةً يتكبَّر .. يُعجَّب بنفسه .. يُعجَّب بالمقدرات والإمكانيات والمعطيَّات التي عنده، ويُعجَّب بتميزه عن الخلق فيتكبَّر .. إما مُنع عنه شيء ما، فيتسخط .. وقد يجتمع الأمران، وقلَّ أن يتخلَّفا ..

فلو وقيت نفسك من خطر الكبر ومن خطر التسخط، فقد بوءت بالدرجة العليا في العبودية ..

فكيف أعالج التسخط؟

سيقول لك الرضا .. قلنا الآن أن الصبر أولاً، ثم بعد ذلك الرضا، ثم تفويض .. فإذا أردت أن تنتهي من المشكلة نهائيًا، فعليك بأن تصل إلى مقام التفويض .. فمن العجيب إن ابن عقيل ذكر في (الفنون) هذا الكلام في معرض الكلام عن إجابة الدعاء ... حيث توجد علاقة .. حيث يُقال إنه مُنع عنه .. أنا دعوت فلم يُستجب لي، فقال كلام يُرقق القلوب يقول واسمعوا بآذان القلوب:

تستبطء الإجابة من الله لأدعيتك في أغراضك، التي يجوز أن يكون في باطنها المفاسد في دينك ودنياك

من أجل هواك ومن أجل مزاجك ومن أجل أهوائك، تكون مستبطء إجابة ربِّك فيتعكَّر صفو الإيمان به سبحانه وتعالى من أجل إنك طلبت ولم تُجب!!!

وتتسخَّط بإبطاء مرادك مع القطع على أنه سبحانه لا يمنعك شُحًا ولا بُخلاً ولا نسيانًا، وقد شَهِد لصحة ذلك: مراعاته لك ..

يا أخي، ألا تتذكر مطلقاً جميله عليك؟ .. يا أخي، ألا تتذكر مطلقًا في مقام البلاء هذا، نعمة أكرمك بها وتميزت بها عن كثير من أقرانك؟؟ .. يا أخي، لماذا هذا النُكران للجميل؟؟ هل أنت تتعبد للمصلحة وبمبدأ المنفعة وبفلسفة المنفعة .. من أنتفع منه فهو حبيبي، ومن لا أنتفع منه لا أريده .. حتى مع الله تعالى تتعامل بنفس الأسلوب .. فإن كان هذا في حق البشر، فهو سيء .. فما بالك تتعامل مع ربِّ البشر بهذا المنطق؟؟ ..

تستبطء وتتسخط بإبطاء مُرادك مع القطع على أنه سبحانه لا يمنعك شُحاً ولا بُخلاً ولا نسيانًا !!! ..

قال "ولا لسان ينطق بدعاء، ولا أركان لعبده ولا قوة تتحرك بها في طاعة من طاعاته، فكيف وجملتك وأبعاضك وقفٌ على خدمته؟؟ ولسانك رطبٌ بأذكاره؟؟"

كل هذا لا يتحقق إلا بحوِّله وقوته .. لا لسانك ينطق .. ولا جوارحك تتعبَّد .. ولا ستقوم لك قائمة، ولا سيكون لك حول ولا قوة في أي من مراضيه وطاعاته إلا بحوله وقوته ..

لكن إنما أُخِرَّ رحمةً لك وحكمةً ومصلحة، فقال سبحانه: {وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} [البقرة: 216]

وأنت العبد المحتاج تتخلَّف عن أكثر أوامره ..

والله كلامه لو صادف قلباً سليماً لرقَّ، يقول: أنك أنت المسكين وأنت المحتاج إليه وفي النهاية تعصيه وتتخلَّف عن أكثر أمره ولا تستبطء نفسك في أداء حقوقه .. هو عندما منع عنك وأبطأ الرزق الذي كنت تريده، ثارت ثورتك وتسخطت ..

فلما لا يسخط هو عليك، وأنت تستبطأ في القيام بما أُمرت به؟؟

{وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ..} [النساء: 72] ..

لماذا لا يكون التعامل هكذا؟ .. إذا عاملك بجنس عملك، لكان في مقابل استبطائك استبطاءً للرزق، هل هذا انصاف؟

أن يكون مثلك يُبطئ عن الحقوق ولا تنكر ذلك من نفسك، ثم تستبطيء الحكيم الخالق في باب الحظوظ التي لا تدري كيف حالك فيها، هل طلبها عطبٌ وهلاك أو غبطةٌ وصلاح؟

إنما في حظ نفسك ولا تعلم إلى أين ستذهب بك، ومن الممكن أن تأخذ الشيء وتمر بالتجربة العملية في الدنيا .. أنك تكون متحسر لعدم وجود مال معين، وبعد ذلك تجد أن هذا المال كان سبب طغيانك، وتأتي تقول: يا شيخ، لقد فُتنت ومنذ أعطاني الله كذا وكذا وأنا للأسف الشديد ..

إحدى الأخوات اتصلت عليَّ منذ أيام، تقول: تزوجت من سبع سنين، وكان مثال الأخ .. مُتسَّنن في الظاهر، وحتى في الباطن ترى آثار الإيمان ظاهر في أحواله .. يطلب العلم .. شديد الحرص على السُنَّة، ثم كان فقير .. كان في هذا الوقت .. تقول: لم يكن لدينا ما يكفي إحتياجاتنا، الراتب الذي كان يأخذه بالكاد يكفي احتياجاتنا .. فكنا فقراء وشاء المولى تبارك وتعالى أن يدخل في تجارة سيارات وما شابه، الموضوع توَّسع معه جداً صار معه المال .. وبعد قليل، فتح مشروع خاص بالأزياء فبدأ يحصل نوع من التقصير .. التفريط في بعض الأشياء .. فبدأ يقوم بعرض

الملابس الفاضحة في محله وشكلها لا يصح أن يكون كذا، وتحت مبررات .. كان يأخذ بفتوى الشيخ فلان وفلان .. كان أصلاً طلبة العلم هم من حوله، رآه الإخوة بعد فترة تحسَّروا على حاله .. ضاع بعد ما كان الأخ فلان، الذي يطلب العلم .. وكان كذا وكذا .. صار إلى أسوأ حال .. وهو في الوقت الذي كان فيه فقيرًا، كانت الأمور كلها مستقرة .. الآن لا يستطيع التكيُّف مع هذه الحياة، فالآن يريد أن يتزوَّج ويريد أن يفعل كذا وكذا ويريد ويريد .. وهي تقول أنها تستحثه على الطاعات، التي كان هو من يأمرها بها وهو في الأصل من وضعها على الطريق .. نسي ولا يذكر.. الأبجديات التي كان يتحدث عنها والتي كان يحث الناس عليها، نسيها .. وتقول: عندما أسمعه القرآن، يقول لي: ثقيـــــل!! .. هي بتعبيرها تقول: أسمعته قرآن وقلت له: تعال فقط نستمع، يقول لها: لا أستطيع، ثقيل .. ثقيل عليَّ!!

هذا الحال الآن .. فُتِحَت عليه الدنيا .. هو كان من الممكن أنه في البداية، كان يقول: يا ربِّي، لماذا؟ فقط بعض المال من أجل العيش ومن أجل كذا وكذا ؟!! .. فانظر .. جربت حظوظك وأخذتها، ولا تفهم الحكمة وتفتح في حظ آخر.. وتقول: لا .. هو الآن يُفكِّر في حظ آخر، بعد ذلك يقول لك: هي المشكلة أن المعاصي تُفتَح عليَّ بسبب ذهابي للعمل والاختلاط بالنساء .. وبالتالي يريد أن يتزوَّج الثانية والثالثة، ويبدأ في الدخول في حظ آخر .. يتزوَّج، ثم يبدأ يفكر في الحظ الثالث .. والمشكلة ليست كذلك .. المشكلة في كونه ليس معه مثل أقرانه كذا وكذا مثل فلان وفلان .. وأنت تفكر، تقول: أنا فقط أحصل على بعض المال .. سأقوم ببناء مسجد وأجلس فيه وأعمل كذا وكذا .. وبعدها يقول: أنا الآن في هذه الفترة أحاول المحافظة على المستوى الإجتماعي الذي وصلت له، وبمشيئة الله كل عام سأقوم بالحج وسأقوم بكذا وكذا .. دائمًا هكذا، ويبدأ ينتقل من حظ لحظ .. ومن حظ لحظ من حظوظ النفس ..

فيقول: أنت تستبطيء هذا الحظ من الحظوظ، وهو سبحانه وتعالى يعلم حالك، ويعلم هل في طلبك هذا العطب والهلاك أو الغبطة والصلاح.

وأتى بهذا المثال العجيب في تدبُّر هذه الآية، التي قد تكون أبعد ما تكون عن تصورنا، أن نخرج منها موضوع التفويض ..

قال: حالة كحال اليتيم، والله سبحانه وتعالى أمرنا بالتحفظ في معاملة اليتيم، فقال: {وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى..} [النساء: 6] .. اسمعوا لهذا الكلام بآذانٍ صاغية، واستشعر هذا المثال .. لأنه والله فعلاً، لو خرجنا بهاتين الكلمتين اليوم فكفانا بها ..

يقول: والله يُنبِّهُكَ على الاحتياط لنفسك وسرك ومالك، بالاحتياط لمال غيرك ..

أي: إذا كنت أنت قد أُمِرت بإنك لو في يديك أموال يتيم، فإيـــــاك أن تأكل مال اليتـــيم، فلـــو أكلـــت مـــال اليتـــيم فقد أرتكبت كبيرة من أعظم الكبائر عند الله ومن الموبقـــات .. فمـــأمور أنـــك تـــتحفظ في مـــال غـــيرك .. فمـــا بالـــك بأموالك أنت؟ من باب أولى أن تراعي هذا .. فيأمرك أن تحتاط وتتحرَّس لنفسك وسرك ومالك ..

لقد أوَّجب عليك ذلك التحرز والتحفظ والارتياد والمبالغة في الانتقاد لكل محل تودعه سراً أو مالاً أو ترجع إليه أو مشورة تقتبس بها رأيًا ..

إذًا، أنت لو متحفظ سيكون مقتضيات هذا .. أن أموال اليتيم هذه ماذا ستفعل بهـــا؟ .. ســـيقول لـــك أول شـــيء ضـــعها في خزانة أو اتركها في مكان حـــتى لا يهلـــك هـــذا المـــال .. أو أن تســـتثمره في تجـــارة تكـــون كـــذا .. وإذا أردت أن تتحفظ تمامًا، فلا تترك بابًا من الأبواب إلا وتنتفع بها .. أي تستشير أحدًا فيما تصـــنع في هـــذا الأمـــر، كـــل هـــذا مـــن موجبات التحفظ ..

قال: ونبَّهك على ما هو أوكد من ذلك، وهو أن تعلم بأنك وإن بلغت الغايـــــة في الفهم والعقل والتجربة يجوز أن يعلم الله الباري سبحانه تقصيرك عن تدبير نفسك .. فإذا بـــــالغت في الدعاء المحبوب نفسك، جاز له سبحانه أن يعطيك بحسب ما طلب ولا يرخي لذلك العنان بحكم ما له أردت، بل يحبس عنك لصالحك ويضيِّق عليك ما وسَّعه على غيرك نظراً لك .. أي: رعاية لك .. لأنه في حجر الربوبية ما دمت عبدًا.

إذا وضعت نفسي محل اليتيم الذي يرعاه وليُّه، فبالتالي هو يعطيه بالمقدار الذي هو أنفع لـــه؛ لكـــي لـــو توَّســـع في الإنفـــاق ستكون مشكلة في المآل .. يمكن في العاجل ستكون جميلة، لكن في الآجل ستصـــبح خســـارة .. فبالتـــالي يعطيـــه بالمقـــدار الذي ينفعه .. ولاحظوا مال اليتيم هذا الذي هو بالضبط الأرزاق التي تأخـــذها .. فأنـــت مقـــدر لـــك رزق معـــين، أنـــت تتعجَّل جزء منه .. فأنت لو أفنيت ستين سبعين في المائة منه، هذا معناه إنك لم تدبِّر أمـــرك لمـــا هـــو بعـــد .. فلـــو أخـــذت أخذت أخذت، بعد هذا سيصبح شقاء .. لكن لو أخذت بالإعتدال الذي يعطيه لك، الـــذي يكفيـــك بحيـــث إنـــه يكفـــي الفترة العمرية التي تعيشها .. مثل اليتيم بالضبط حتى يبلغ سن الرشاد، فهـــو ينفـــق عليـــه بهـــذا المقـــدار .. فـــلا تنفـــق أكثر الرزق فرحا .. أي إنه يعطيني يعطيني يعطيني وبعد هذا تملَّك في أبواب أخرى تطلب فيهـــا الـــرزق، إنمـــا اطلـــب مـــا يكفيك وهذا ما يعطيه لك ربُّك ..

أنت تطلب ما يطغيك، لكن الله يعطيك ما يكفيك،،

هنا المسألة .. انظروا لجمال هذه .. فكرة التفويض .. لو أنا مثل اليتيم، هذا اليتيم لن يسأل .. لو هو يُدبِّر له أمره، فلن يظل يقول له أنت أعطيتني ولم تعطيني كذا .. لن يعترض .. إنما هو يعطيه حاجته الأساسية، فماذا يفعل؟ .. فيعيش بعد هذا ..

يقول: فإذا أخرجك عن ربقة التكليف سرَّحك تسريحًا .. ولا تطلب التخلية حال حبسك، ولا التصرُّف بحسب مرادك حال حجرك، فلست رشيدًا في مصالحك ..

يعني لو تعاملت وفق هذا المعنى فأعتبرت نفسك في تقدير أمرك، أنت كالسفيه الذي ينفق فيُحجر عليه .. أن ينفق المال بطريقة خاطئة، فهو جاء له بعض المال فصرفه كله بسفه .. فيُحجر عليه؛ لأنه أنا الآن جاء لي مليون جنيه فصرفتهم كلهم مرة واحدة وجلست أعمل شمال و يمين وألهو و ألعب و أعبث .. فهذا تصرف السفيه، الذي يطلب الرزق كله الآن .. وماذا بعد؟ .. فهذا يُحجر عليه ..

فيقول: أنك إذا ألقيت الحِمل عليه هو سبحانه وتعالى وفوَّضت الأمر إليه سبحانه وتعالى، تستريح تمامًا من معاناة التفكير والتدبير والتخطيط، ومعاناة الهمَّ والغم والحزن ..

أين الحزن؟؟ .. عندما يكون على ما مضى، والهمُّ يكون على المستقبل، والغمُّ يكون في الحاضر ..

هذه الثلاثة التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم في آخر الحديث، حديث ابن مسعود في صحيح ابن حبان عندما قال ((إذا أصاب عبد هم أو حزن فليقل...)) ففيها في النهاية: ".. أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي وغمي" [صححه الألباني، تخريج الطحاوية (110)]

فأفاد ابن القيم إن المعنى الثلاثة، فأنا لن أحمل هم ولا غم .. مستريح البال .. ولهذا قال .. قلنا اكتبوا هذه العبارة، العبارة الذهبية لابن عقيل الحنبلي وهي خلاصة درسنا اليوم

"فكن بالله كاليتيم مع الولي الحميم، تستريح من كدر التسخط"

✍ واجب عملي:: نحن بحق نحتاج أن نأخذها كواجب عملي:: إنك تناجي ربك حال صفاء وخلوة بهذا المعنى .. معنى حلو جدًا والله .. إن أشعر إني يتيم في يد ولي حميم ..

أنا غلبان يا رب .. أنا مسكين يا رب .. أنا ليس لي غيرك يا رب .. أنا بدون تدبيرك أضيع .. أنا أعلم تمام العلم أن ما تقدره لي، هو أوفق التدبير وهو أحسن التدبير وهو الذي يصلحني ..

فأنا فوَّضت الأمر إليك، فدبِّر لي واختر لي ..

فلا تعاني بعد ذلك آلام ومعاناة من يسبحون بعقولهم ويخطئون من حيث يريدوا أن يصلحوا، حين يدبروا لأنفسهم .. فلا تجد هذه المعاني أبدًا في قلبك، إذا فوَّضت تسترح من كدر التسخط .. ستتسخط على ماذا؟! طالما هو الذي يدبِّر، وأنا مرتاح وأعيش في هذا التسريح .. أنا منطلق في حياتي .. الذي يفعله لي هو الخير ولا أحزن على مفقود وأرضى بالموجود، فأستريح من كدر التسخط .. وأنجو من مأثم الإعتراض والتحير ..

كأن تقول: لماذا يا رب لماذا؟ ألم يكن هذا أفضل؟ .. خير الحمد لله ..

تنجو من مأثم الإعتراض والتحير وليس يمكنك ..

وهذه العبارة الثانية الذهبية؛ لإنه قال كيف يكون التفويض ولخص المشكلة كلها ..

نحن قلنا الطريقة الأولى في العبارة السابقة: **إنه ينشأ عن الثقة ..**

الثانية ..

قال "وليس يمكنك هذا إلا بشدة بحث ونظر في شيئين: حبك له"

وهو نفس الكلام الذي قلناه مع كلام ذي النون، عندما قلنا أن ذو النون قال: إن من أعلام الرضا::

هيجان الحب في حشو البلاء ..

فلو تحبه، تركن لحبه .. حبيب إلى القلب؛ لأنه من الودود ..

على قدر حبك، سيكون تفويضك .. وعلى حسب قدرك ومشائك وحالك عنده .. أكثرنا تفويضًا، أكثرنا قربًا ..

ومن هنا هؤلاء هم أهل السباق وهؤلاء هم السابقون السابقون .. انظروا كيف إن المعنى قريب ..

{ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (*) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ} [الواقعة: 88,89] ..

آية تُشعرك أنك تطير .. تشعر فيها أنك تتنفس الصعداء وتستريح ..

روح : راحة .. وريحان : تشم رائحة جميلة ومُعطَّرة ..

وشيء يشرح الصدر وجالس تضع قدم على الأخرى، وفي جنة نعيم تتمتع, هذا هو بالضبط حال المفوضين::

في : : {.. رَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ}

قال: فإذا علمت أنك بالإضافة إلى الحكمة الربانية والتدبير الإلهي دون اليتيم .. أنت أقل .. بالإضافة إلى الولي بكثير، صح لك التفويض والتسليم واسترحت من كدِّ الإعتراض ومرارة التسخط والتدبير .. وقد أشار إلى ذلك بقوله::

{ .. وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا} [الإسراء: 65]

قال: وأعلم أنه في أسرِ الأقدار تُصرَّف، فإن أعترضت صرت في أسر الشيطان ..

يقول: لك طوال ما أنت محبوس على تقدير ولا تخرج عن هذا الباب ولا تعترض، أنت من الداخل في داخل الدائرة ليس عندك أي مشكلة .. ما أن تبدأ تقفز وتبدأ تقول: هذه الدائرة غير مناسبة لي .. لماذا يحدث لي؟! .. لماذا لا آخذ الدائرة الأوسع بعض الشيء؟! .. لماذا لا آخذ هذا الطريق، وتبدأ تعترض .. تقفز من هذا، تذهب إلى أسرٍ آخر .. يعني أنت في كلا الحالتين محبوس، فلا تفهم إنك عندما تخرج من أسر القدر إنك ستخرج إلى بحبوحة الحرية .. في هذا العهد الذي يتشدقوا فيه بهذه المعاني، معاني الحرية والليبرالية وهذه المعاني .. إنه في النهاية تمامًا سينطلق إلى فسيح الحياة، لا شيء يحجزه !! .. وهذا مفهوم خاطيء؛ لأنه لو وجد هذا في الحياة فلا يوجد قانون يحكم الدنيا ..

أنا أريد أن أسير بسرعة 200، وسيارتي غالية الثمن، فلماذا لا أقودها بهذه السرعة؟؟! .. لا، لأنك الآن لو سرت بسرعة 200 ستحدث حوادث ومشاكل .. وأنت لماذا تمنعني؟! حريتي هكذا وأنا قد صرفت عليها مبالغ كبيرة، فلماذا لا أسير على أقصى سرعة؟؟!!

فلا تعتقد أنك في أي وقت من الأوقات لن تجد من يحجزك .. فلابد من أن يكون هناك من يحجزك .. لكن هذه الجهة الأخرى، سيكون هناك أسر آخر ألا **وهو أسر الشيطان ..** فيحجزك الشيطان: لماذا حتى الآن لم تفعل كذا؟.. عش حياتك وشبابك، اعمل كذا وكذا .. فعندما تقوم بعمل ذلك ثم تريد أن تخالف أمره، تكون بالفعل قد

أدمنتها واستمرأتها .. فتعيش مأسورًا لها، فتصير عبدًا لهواك .. فإذا أردت المخالفة، تجد نفسك .. وأنت الحر الذي يفعل كل ما يحلو له .. لا تستطيع أن تتوب وأنت الحر المريد كل ما يأتي على بالك تقوم به .. فهيا الآن تريد أن تكون ملتزمًا، فإذا أردت ذلك وجدته .. لا تستطيع أن تلتزم! .. لذا فأنت لست حرًا، فلو كنت حرًا لكنت مستطيعًا لما تريد ولتحقق لك ما تريد ..

فهل كل ما تريده حققته في كل شيء؟ .. حتى في أهوائك، التي هي بحر لا ساحل له .. هل حققت جميع أغراضك ولم يقف أمامك شيء أبدًا؟

لابد أن تجد شيئًا يحجز، إذًا فأنت لست حرًا ولست قويًا .. القوة المطلقة التي تجعلك أنت المُدبِّر لأمورك، إنما من أسر إلى أسر ..

فأن تكون في أسر من لا يُتهم عليه، خير من أن تكون في أسرين أحدهما لا محيص لك عنه ..

{بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: 81]

والآخر أنت أوقعت نفسك فيه .. فإذًا عليك أن تفهم هذا عن الله، ولا أقبح من عاقل حماه الله وحجر عليه حميمه نظرًا له ..

يعني أنه سبحانه وتعالى يرعاك ويدبر لك ويكون كافيك وحسبك ويضع كل هذا من أجلك، ثم أنت توقع نفسك في قبيح هذه التصرفات وتُدخِلَ على نفسك عدوًا يسخطه عليك؛ ليفسد عليك علاقتك مع وليك!!

فموضوع التفويض يُلَّخص في هذا المعنى::

في احساسك أنك فقير كاليتيم محتاج إلى وليّ يُرشده؛ لأنك لست بأهل الرشاد ..

النبي صلى الله عليه وسلم يقول معاني جميلة في التفويض، فكما قلنا إن التفويض راحة .. قال لنا صلى الله عليه وسلم أن المرء عندما يأوي إلى مضجعه ليرتاح؛ يحتاج في هذا الموطن راحة لبدنه وراحة لنفسه ولا تتحقق الراحة النفسية إلا بالتفويض .. يقول النبي صلى الله عليه وسلم والحديث في الصحيحين "إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوئك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل: اللهم أسلمت وجهي إليك وفوَّضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبةً ورهبةً إليك لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك. آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت .. فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة واجعلهن آخر ما تتكلم به" [متفق عليه]

وجاء في لفظ الترمذي " ألا أعلمك كلمات تقولها إذا أويت إلى فراشك فإن مت من ليلتك مت على الفطرة وإن أصبحت أصبحت وقد أصبت خيرًا ..... ثم ذكرهذا الحديث. [رواه الترمذي وصححه الألباني]

وكان صلى الله عليه وسلم ربما يدعو، والحديث في المستدرك وصححه الالباني "اللهم أمتعني بسمعي وبصري حتى تجعلهما الوارث مني، وعافني في ديني وفي جسدي وانصرني ممن ظلمني حتى تريني فيه ثأري، اللهم إني أسلمت نفسي إليك وفوَّضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك وخليت وجهي إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك. آمنت برسولك الذي أرسلت وبكتابك الذي أنزلت" [صحيح الجامع (1269)]

وكأن فيها المعنيين .. أي إن الأولى أخذنا منها مُلحة أنها عند الإيواء إلى المضجع للراحة .. والثانية راحة أخرى في: اللهم أمتعني بسمعي وبصري حتى تجعلهما الوارث مني .. والمعافاة في الدين والجسد، في نفس الوقت هذا الأمر الذي يشفي غليل المظلومين حين يثأر الله لهم ممن ظلمهم، وحين يقومون بهذه المعاني من الاستسلام والتفويض لأمر الله تبارك وتعالى.

من الهدى والسُنَّة أيضًا، أن النبي صلى الله عليه وسلم أرشدنا إلى معنى التفويض فى بعض أذكار الصلاة، فحين يقول العبد سمع الله لمن حمده، يقول " اللهم ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد .." [رواه مسلم]

يقول أهل العلم "أحق ما قال العبد تقديره .. أحق قول العبد: لا مانع لما أعطيت .. وإنما كان أحق ما قال العبد، لما فيه من التفويض إلى الله والاعتراف بوحدانيته والتصريح بأنه لا حول ولا قوة إلا به"

أحق ما يقول العبد: لا مانع لما أعطيت ولا مُعطي لما منعت .. فهذا فيه معنى الاستسلام والانقياد لله سبحانه وتعالى، فلا يمنع عطائك شئ ولا يعطى غيرك لأحد ..

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية "أحق ما قال العبد خبر مبتدأ محذوف، أي: الحمد أحق ما قال العبد"

توجيه آخر، لا مانع لما أعطيت .. أي: لا مانع لما أردت اعطائه .. ولا ينفع ذا الجد منك الجد .. أي: من كان له فى الدنيا رئاسة ومال لم ينجه ذلك من عذاب الله، وإنما ينجه الإيمان والتقوى والطاعة .

المعنى الأظهر في قضية التفويض والتبرأ من الحوِّل والقوة هو في:

لا حول ولا قوة إلا بالله

فهي كلمة الاستسلام والانقياد والتفويض، فالعبد لا يملك من أمره شيئًا وليس له حيلة ولا قوة في جلب منفعة أو خير أو دفع ضرر أو شر .. فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .. **لا حول ولا قوة إلا بالله** .. جاءت في بعض الأحاديث مضمومة إلى الكلمات الأربع: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر .. وجاء في فضلها كثير من الأحاديث، ولكم أن تراعوا هذه المواضع لتكون بمثابة الواجب العملى في تحقيق معنى التفويض.

قال صلى الله عليه وسلم والحديث في البخارى " ألا أدلك على كلمة هي كنز من كنوز الجنة: لا حول ولا قوة إلا بالله" [متفق عليه] .. وقال صلى الله عليه وسلم " ألا أدلك على باب من أبواب الجنة: لا حول ولا قوة إلا بالله" [رواه أحمد وصححه الألباني]

إذًا، فهي تدخر ككنز من كنوز الجنة الجنة كما أنها باب من أبواب الجنة، فتوجب دخولها فيكون لك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب أحد ومن الخير ما لا ندركه ولا نعلمه الآن .. وقد ذهب غير واحد من الصحابة والتابعين إلى إنها **من الباقيات الصالحات** ..

ويخطئ من يستخدمها فى غير بابها .. قال شيخ الإسلام ابن تيمية "وذلك أن هذه الكلمة، أي: لا حول ولا قوة الا بالله هي كلمة استعانة لا كلمة استرجاع، فكثير من الناس يستخدمها جزعًا لا صبرًا"

فلابد أن نفهم متى نستخدمها ونتأمل هذه الكلمة، التي تعني الإخلاص لله وحده بالاستعانة .. يقول شيخ الإسلام "تأملت أنفع الدعاء، فإذا هو دعاء العون على مرضاته ثم رأيته فى الفاتحة { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: 5]"

تمام الاستعانة بأن تحوِّقل،،

لا شك أنه وردت هذه الكلمة في بعض المواضع للفت النظر إلي هذه القضية، كما أمرنا عند ترديد الأذان: حيَّ على الصلاة .. حيَّ على الفلاح .. يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله : "إن العبد ضعيف، ليست له قدره على التحوُّل من حال إلى حال .." من حال الضلال إلى حال الهداية، من حال الخمول إلى حال النشاط، من حال الضعف إلى حال القوة .. لا تستطيع فعل ذلك فانت ضعيف {.. وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً} [النساء: 28] .. قال: ومن ذلك ذهابه إلى الصلاة لأدائها مع الجماعة، فإنه يستشعر عجزه وضعفه فلا يقدر على إجابة هذا الدعاء إلا بالله وحده فلا حول ولا قوة الا بالله"

ويؤمر بهذه الكلمة كذلك من يخاف العين على شيء .. فيقول ما شاء الله، لا قوة الا بالله .. {وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ} [الكهف: 39] .. كان الإمام مالك يقول: "ينبغي لمن يدخل داره أو بستانه، أن يقول هذه الكلمة: ماشاء الله لا قوة إلا بالله"

ويقولها العبد إذا خرج من بيته، فيقول: بسم الله توكلت على الله، لا حول ولا قوة الا بالله.

ويقولها إذا فرغ من طعامه: الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه، من غير حول مني ولا قوة

فهذه الكلمة العظيمة ينبغي أن تكون شعار المفوضين؛ لأنها تمثل هذا المعنى الجليل،،

ولو فوَّضت الأمر فلن تجد في قاموس مفرداتك، **كلمة لو ..** لذا نهانا النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فقال "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير. احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز. وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان" [رواه مسلم]

✍ **إذًا، الواجب العملي::** فيها أن نتذاكر هذه الكلمة كثيرًا ونطبقها في حياتنا ونرمي بحمولنا على الله تبارك وتعالى ونكون كما ذكرنا على حال اليتيم.

أختم بما ذكره ابن القيم في هذه المنزلة، بعد أن تكلم عن التوكل .. جعل منزلة من منازل السائرين في المدارج جعلها بهذا العنوان **"منزلة التفويض"** .. قال: هي على ثلاث درجات ..

فإذا سألت كيف أكون من أهل التفويض؟، فهذه إجابتك وكنا قد ذكرنا بعض الأشياء: **تحقيق الثقة بالله سبحانه وتعالى واليقين واستشعار الافتقار ومعاني الذل والانكسار لله تبارك وتعالى ..** ثم وضع لنا هذه المعاني الجيدة قال

الدرجة الأولى: أن يعلم أن العبد لا يملك قبل عمله استطاعة .. وهذه هي: لا حول ولا قوة إلا بالله .. فقبل العمل ليس في مقدورك شئ .. فلا يأمن من مكر ولا ييأس من معونة، ولا يعوِّل على نية .. كلام رائع ..

إذًا، فأول شيء لتحقيق معنى التفويض .. هل تستطيع أن تعمل؟ .. فلا تقل: لا أستطيع، وبداخلك تقول: نعم أقدر، فقبل ذلك عملت فقدرت!! .. فلو كل مرة استشعرنا هذا المعنى في أداء أي شيء، فلا يعوِّل على النية لأنها خير .. ولا ييأس من المعونة .. لفشل سابق، فربما تأتي المعونة الآن .. وهذه عادة ما يكون حين تظن أن لا ملجأ من الله إلا اليه .. وفي نفس الوقت، لا تأمن من مكر .. فكلما تجد أنها تسير جيدًا فتركن إلى عملك، وتفوِّض الأمر إلى تدبيرك .. فإذا سارت كل مرة هكذا، فلما لم تنفع فى هذه المرة؟ ..

إذًا، فلا يأمن من مكر ولا ييأس من معونة ولا يعوِّل على نية ..

وهذه هي الدرجة الأولى، فمن حصلها حصل أدنى مراتب التفويض.

الدرجة الثانية: معاينة الاضطرار .. يعني أنا محتاج إليه ومضطر إلى هذا، ليس لي وجهة أخرى {لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ} [النجم: 58] .. {.. وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ..} [التوبة: 118]

يقول: فلا يرى عمله منجيًا، ولا ذنبًا مهلكًا .. وهذه التي أعترض عليها ابن القيم، ماذا يعني: ولا ذنبًا مهلكًا؟؟ .. فقال: إن أراد به أن هلاكه بالله لا بسبب ذنوبه، فباطل .. فمعاذ الله أن يقوله .. وإن أراد أن فضل الله وسعته ومغفرته ورحمته ومشاهدة شدة ضرورته وفاقته إليه .. فقد قال: الاضطرار .. يوجب له أن لا يرى ذنبه مهلكًا، فإن افتقاره وفاقته تمنعه من الهلاك بذنوبه ..

يعنى لعله يرى أنه لو وصل في قمة هذه العبودية ففي حكمة الحكيم وفي فضل المنان أنه يعافيه ويغفر له ذنبه، فلا يرى من هذا الوجه أن ذنبه مهلكا .. هذا وجه وإن كنت أرى أن نقف فقط عند قوله: فلا يرى عمله منجيًا ولا سببًا حاملاً .. كان أوفق، لأن العبارة موهمة ومن الممكن أن تفتح علينا معاني أخرى .. إنما لو قال هكذا، كان جيد .. أنا مضطر، فلا أرى أن عملي هو الذي سُينجيني إنما يُنجيني برحمته ..

ولا سببًا حاملاً .. أي: أن الحامل له هو الحق، لا الأسباب التي يقوم بها .. فيفقد احساس أن هذا السبب يُنتج هذا الأثر .. فالسبب لا يحمل على ذلك، وإنما هو محض الفضل والمنة.

الدرجة الثالثة والعليا: قال: شهود انفراد الحق بملك الحركة والسكون والقبض والبسط ومعرفته بتصريف التفرقة ، يعنى فى هذا الحال العبد يشهد أن حركات العالم وأن سكونه صادرٌ عن الحق تبارك وتعالى .. فكل متحركٍ وكل ساكن هو من قِبل الله تبارك وتعالى، فيشهد تعلقه بأن الله سبحانه وتعالى يبسط ويقبض .. يعنى يعطي ويمنع ..

فلو شعر أن كل ما يصنع من حركات .. من سكنات .. عطاء .. منع .. كل هذا في ملكه سبحانه وتعالى ..

يقول "ومعرفته بتصريف التفرقة والجمع، بأن يكون المشاهد عارفًا بمواضع التفرقة نظر الاعتبار" ..

أتعرف ما معنى التفرقة والجمع؟ .. ألست متميزًا عن الناس بأشياء ومتفق معهم في أشياء؟ .. فما تفردت أنت به، فصار مرعيًّا عندك .. وما مَن الله سبحانه وتعالى به عليك من نِعَم، قد إجتمعت مع الناس فيها ..

فتراعى وتفهم أن ذلك من مراد الله لحكمة .. قد أعطاك مال دون غيرك، فتراعي هذا جيدًا أنه ليس لاستحقاقك وإنما لمراد الله بما يتفق مع المعنى الذي خُلِقت أنت من أجله .. فخلقت غنيًا، لتنفق على شيء معين .. وأنت خلقت فقيرًا، لأن هذا ما سيجلب قلبك له .. وأنت مَنَّ عليك بالذكاء أكثر من غيرك، لأنك ستصرفه في مكان معين ..

فهذه المعانى تجعلك لا ترى لنفسك شيئًا .. وأراد هذه المعاني؛ لأنها تعطي الافتقار .. فالتفرقة قد تجعلك تتكبَّر .. وتشعر بالتميز ..

فيقول "ومعرفته بتصريف التفرقة والجمع .." .. فيكون متفهمًا وضع هنا لأي شيء، وجُمِع مع الناس هنا، لأى شئ .. "فلو فهم حكمة ذلك لاستراح" .. فلو فهمتها وشهدت أن الله عزَّ وجلَّ هو المنفرد بتدبير الامور، وأنه ما أعطاك هذا لتميزك عنده بشيء وإنما لتصرفه أنت لما يريد .. فتكون على مراده لا مرادك، فاذا كان عندك ذلك فلن تجد لك استشعار لأى قيمة وتميز على الناس .. فلا تشعر بالتميز، لأن هذا الاحساس هو الذي يجلب لك الآفات.

إذًا، دعونا نردد في آخر هذه المحاضرة كلام النبى صلى الله عليه وسلم الذى أمرنا بذكره :

اللهم أسلمت وجهي إليك وفوَّضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبةً ورهبةً إليك

لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت ..

سبحانك اللهم ربنا و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك و أتوب إليك.

وصلّ اللهم على نبيّنا محمد و على آله و صحبه و سلّم.

فضيلة الشيخ/ هاني حلمي